



جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الدراسات الأدبية

رسالة دكتوراه

بعنوان

فــن القــص في مؤلفــات ابن عربشاه

(ت ٨٥٤هـ)

إعداد

رجب رمضان السيد عبد الوهاب

إشــراف/

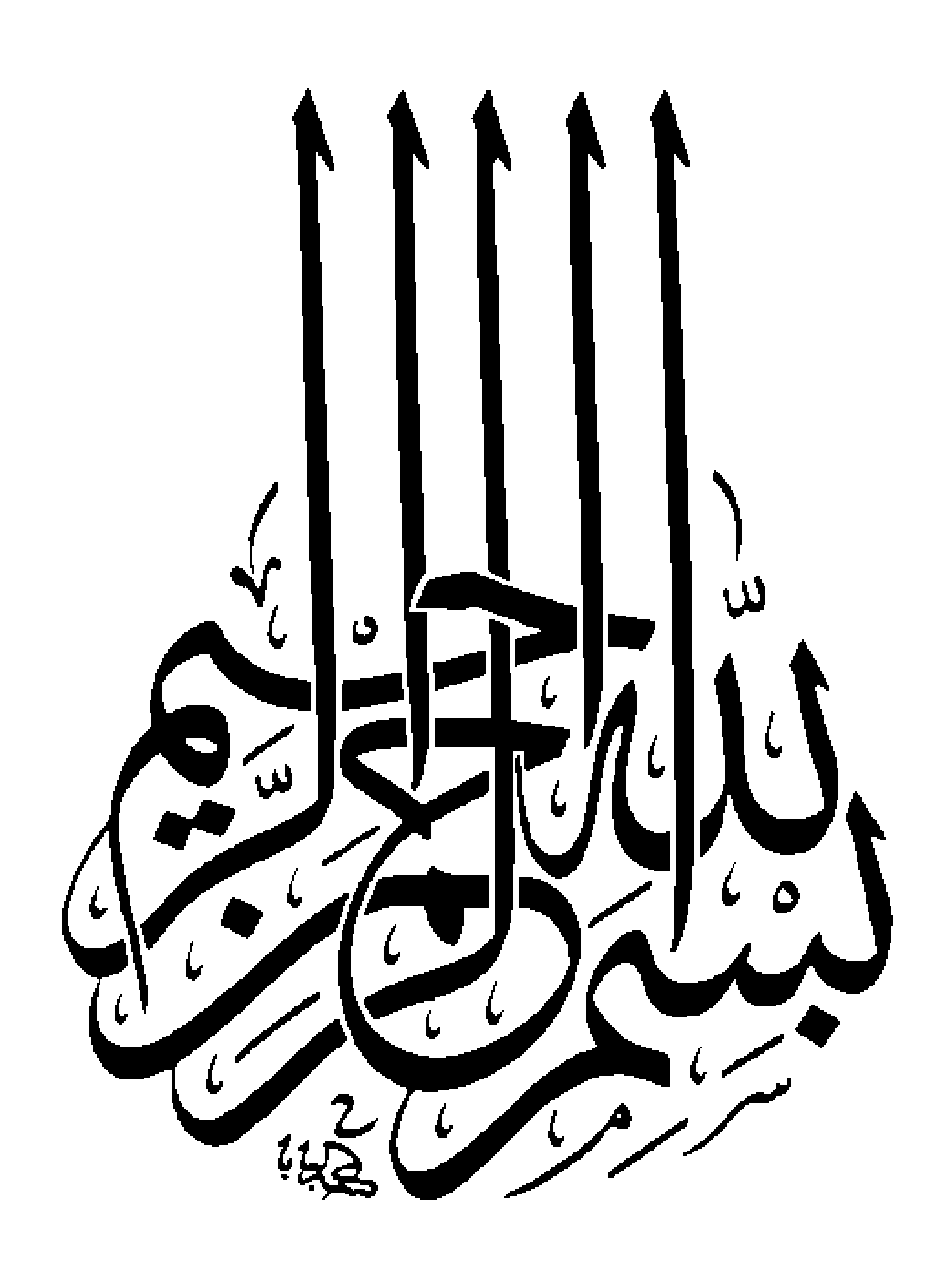
أ. د شعبان محمد مرسي

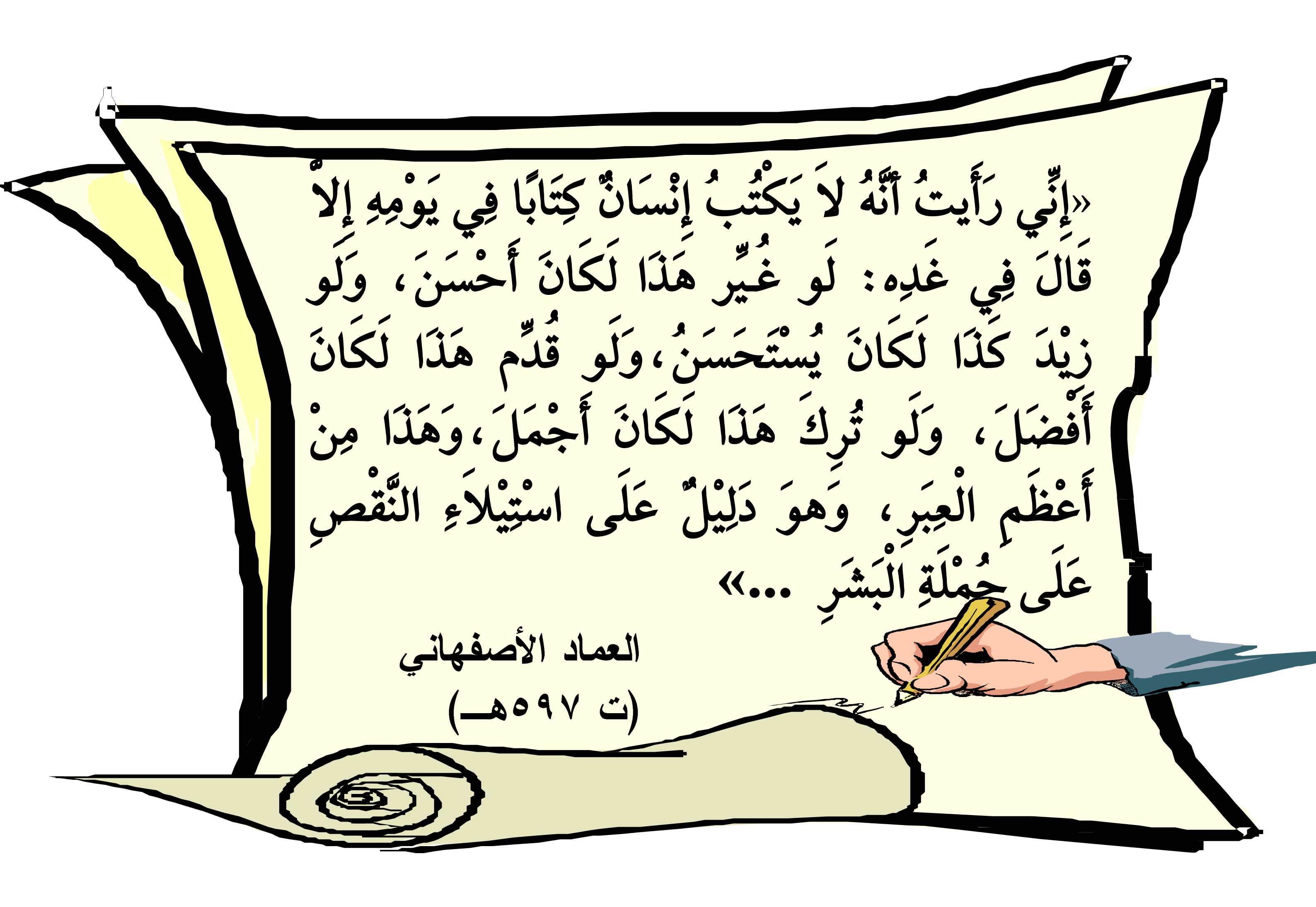
رئيس قسم الدراسات الأدبية

بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة

٢٠١٣م




بسم الله الرحمن الرحيم


«إِنِّي رَأَيتُ أَنَّهُ لاَ يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلاَّ قَالَ فِي غَدِهِ: لَو غُيِّر هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَو زِيْدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحسَنُ، وَلَو قُدِّم هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَو تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ، وَهوَ دَلِيْلٌ عَلَى استِيْلاَءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ ...»
العماد الأصفهاني
(ت ٥٩٧هـ)



إهـــــداء

إلى ...

يوسف، ، وياسين

رجب

المقدمة

تحمل هذه الدراسة عنوان "**فن القص في مؤلفات ابن عربشاه (ت ٨٥٤هـ)**"، وابن عربشاه أديب عربي، ومؤرخ دمشقي الأصل، عاش في العصر المملوكي المتأخر، أعني: عصر المماليك البرجية المليء بالاضطرابات الداخلية والخارجية، وعاصر هجمة الطاغية المغولي تيمورلنك **(ت ٨٠٧هـ)** الشرسة على بلاد المشرق الإسلامي، وقد رحل ابن عربشاه بعد هذه الهجمة عن دمشق، وساح في بلاد العالم الإسلامي، متعلمًا تارة، ومعلمًا تارة أخرى، إلى أن استقر به المطاف في نهاية حياته في مصر في ظل السلطان المملوكي الظاهر جَقْمَق **(٨٥٧هـ)**، فكوَّن بذلك ثقافة واسعة أهَّلَته أن يكون صاحب نتاج علمي وأدبي متنوع.

من بين النتاج الأدبي لابن عربشاه اخترنا "**فن القص**" لدراسته، فظهر لنا أول الأمر كتابان مطبوعان فيهما النزعة القصصية؛ أحدهما "**عجائب المقدور في نوائب تيمور**"، وهو- كما سيتضح ذلك بالتفصيل في الدراسة- سيرة موضوعية للطاغية تيمورلنك، وأما الآخر فكتاب "**فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء**" وهو كتاب قصص على لسان الحيوان والطير، وكان من المقرر أن تكتفي الدراسة بهما[١]، وحين سار بنا ركب الدراسة عثرنا على كتاب ثالث ما زال مخطوطًا، عنوانه "**التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر القائم بنصرة الحق أبي سعيد جَقْمَق**"[٢]، وظاهر عنوانه أنه في سيرة السلطان المملوكي الظاهر جَقْمَق، إلا أن فيه من الحكايات والأخبار التي لا علاقة لها بهذا السلطان ما يوفر للدراسة بغيتها من جهة، ويثبت أن ابن عربشاه له نتاج قصصي يستحق أن يجمع بعضه إلى بعض من جهة أخرى؛ لتقوم عليه دراسة تحاول فحصه وتحليله لتكشف عن كيفية بنائه، ومكونات هذا البناء، وبخاصة أن ظاهر كتابين من الكتب الثلاثة التاريخ وليس القص.

لم يحظ كتابا "**عجائب المقدور**" و"**التأليف الطاهر**" بأي دراسة تفحص الجانب القصصي فيهما[٣]، أما كتاب "**فاكهة الخلفاء**" وهو الكتاب الأكثر شهرة من الناحية القصصية بين كتب ابن عربشاه، فإن ثمة أربع دراسات، تناولته مستقلاً، أولها، وتكاد تكون بعيدة عما

---

[١] هذان الكتابان هما ما أشار الطالب إلى أنه سيدرسهما في الخطة التي قدمها للقسم للتسجيل لنيل درجة الدكتوراه، ولما عثر على الكتاب الثالث أضافه إليهما.

[٢] يعمل الطالب على استكمال تحقيقه.

[٣] قام الطالب في ذلك بمراجعة د. محمد أبو المجد: ببليوجرافيا الرسائل العلمية في الجامعات المصرية منذ إنشائها حتى نهاية القرن العشرين "الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي"، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، كما قام بمراجعة التسجيلات الجديدة لرسائل الماجستير والدكتوراه في أقسام الأدب والبلاغة بالجامعات المصرية إلى وقت الفراغ من كتابة هذه المقدمة، وقد أصبحت منشورة على مواقع الشبكة العنكبوتية، فلم يجد دراسة للجانب القصصي في الكتابين.

نهدف إليه، دراسة بعنوان "ابن عربشاه وكتابه فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء: دراسة مقارنة بينه وبين مرزبان نامه الفارسي"، وهي بحث تكميلي للحصول على درجة الماجستير بكلية العلوم والآداب بالجامعة الأمريكية ببيروت، ولم تتعرض للقص بوصفه ظاهرة أدبية في الكتاب، وإنما اقتصرت على مقابلة الكتابين موضوعيًّا، ومن حيث المحتوى فقط، وتركت البحث في أسلوبهما الفني(١).

ثاني هذه الدراسات: عنوانها "السارد والمخاطب في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء: دراسة في الباب السابع"، وكما يبدو من عنوانها فإنها اقتصرت على دراسة عنصرين فقط من عناصر القص في باب واحد من أبواب الكتاب العشرة، كما أنها صرفت عنايتها إلى «دراسة الحياة السياسية في زمن ابن عربشاه، ودراسة حياته ورحلاته، وهروبه من موطنه وأسباب ذلك، وعلاقة ذلك كله بموضوع كتابه، ثم دراسة مضمون الكتاب "فاكهة الخلفاء" مع التركيز على الحكاية الإطارية للباب السابع»(٢)، وهي وإن كانت تفيد في ربط مضمون الكتاب بحياة المؤلف ورحلاته، فإنها لا تعطي رؤية كاملة عن الملامح الفنية المتعددة في الكتاب، وفي باقي عناصر بنيته القصصية.

ثالث هذه الدراسات: عنوانها "بنية السرد ومنطق الحكي في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عربشاه (ت ٨٥٤هـ)" وهي بحث صغير منشور ضمن الأبحاث المقدمة إلى مؤتمر "التفكير المنهجي في العلوم العربية والإسلامية" بكلية دار العلوم جامعة الفيوم، وقد اقتصر صاحبه على «بعض الأمثلة والظواهر الفنية الغالبة، دون الاستقصاء الذي تستحقه دراسة "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء"»(٣)؛ لذلك جاء بحثه خاليًا من الإحاطة والشمول بمكونات الموضوع، وأحكامه ونتائجه جزئية؛ لأن دراسته لم تقم على الاستقصاء.

---

(١) محمد كرّاني: ابن عربشاه وكتابه فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء؛ دراسة مقارنة بينه وبين مرزبان نامه الفارسي، الجامعة الأمريكية، بيروت، سنة ١٩٦٧م، ص "أ".

(٢) د. عبد الله الغزالي: السارد والمخاطب في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء "دراسة في الباب السابع، مجلس مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة ١٧٣، الحولية ٢٢، ٢٠٠١م، ص ١٣.

(٣) د. صابر جويلي: بنية السرد ومنطق الحكي في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عربشاه (ت ٨٥٤هـ) كتاب أبحاث المؤتمر العلمي العاشر بكلية دار العلوم جامعة الفيوم "التفكير المنهجي في العلوم العربية والإسلامية" ٢٠٠٨م، ص ١٦١٢.

رابع هذه الدراسات وأهمها: عنوانها "السرد في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء: آلياته ودلالاته"، وهي جهد طيب، حاول صاحبه «فك إبهام كثير من الحكايات الرمزية الغامضة والملتبسة داخل كتاب "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء"... لتفسيرها وتأويلها»[(١)]، فصرف بذلك عنايته إلى التأويل، ولم يدرس من عناصر البنية القصصية في الكتاب سوى الراوي والشخصية، في الوقت الذي لم تتطرق فيه دراسته إلى عنصري الزمان والمكان.

ربما كانت جدة الموضوع، وعدم دراسته من قَبل دافعًا لبعض الباحثين لاختيار موضوعاتهم التي يتخيرون للدراسة، ولا ننكر ذلك بدءًا، وإن كان لنا من الأسباب والأهداف ما يدفع بنا دفعًا إلى وضع "**القص في مؤلفات ابن عربشاه**" موضعه من مكتبة الدراسات الأدبية، يأتي على رأس هذه الأسباب أن العناية بالجانب القصصي من كتب ابن عربشاه الثلاثة برؤيةٍ حديثة من شأنه أن يبث روح الجدة والحيوية في هذه النصوص الموروثة، في وقت يلزمنا فيه النظر في تراث العرب القصصي بغية الكشف عن أهم عناصره الفنية من منظور جديد، وبتفاعُل جديد، بنّاء وخلاّق؛ لأن هذا المنظور بات من مسْتلزَمات الوعي الجديد بالتراث الأدبي والفكري بوجهٍ عام، وبخاصة أن هذا التوجه في الدراسة- في رأينا- هو الأكثر تمثيلاً لذاكرتنا وهُويتنا ومخيّلتنا لارتباطه ارتباطًا وثيقًا بـــ"اليومي" المَعيش، والممتدّ إلى الآن، و"بالتاريخي" المُوغِل في الزمنين الثقافي والواقعي، وهو بذلك يربط، قدر الإمكان، بين مصطلحين في النقد الأدبي هما مصطلحا الأصالة والمعاصرة، اللذان يثيران جدلاً لدى النقاد المعاصرين اليوم.

وطبقًا للتوجه السابق يصبح من الطبيعي أن تسعى الدراسة للكشف عن وحدات البناء القصصي ومكوناته وسماته في مؤلفات ابن عربشاه لاختبار مدى احتوائها على بعض العناصر المعروفة في الأنواع القصصية الحديثة، بالإضافة إلى رصد حركة التطور الذي مر به القص العربي في القرن التاسع الهجري ممثلا في علم من أعلامه وهو ابن عربشاه، وأخيرًا وضع النتاج القصصي لابن عربشاه في موضعه من تاريخ الفن القصصي في التراث العربي.

تفرض الأسبابُ الدافعةُ للدراسة والأهدافُ المتوخاةُ من ورائها التزامَ مناهج قرائية تعمل على تحقيق ذلك، فاستفادت الدراسة من علم السرد وتقنياته وآليات تفحصه للنص دون

[(١)] أحمد علواني: السرد في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء "آلياته ودلالاته"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص ١٣.

أن تتجاهل ضرورات الاستفادة من مناهج قرائية أخرى تدعم الدراسة وتعمقها وتهتم بالقضايا الفنية المنطلقة من البنية الداخلية للنص، إذ استفادت الدراسة من دراسات أصحاب الاتجاه التركيبى في دراسة السرد(١)، الذي نشأ على أيدي الشكلانيين الروس، وبخاصة شلوفسكي وجاكبسون، ويدور حول فكرة ما أُطلق عليه "مصطلح الأدبية" الذي اعتمد عليه الشكلانيون بوصفه المادة الوحيدة للبحث الأدبي، تلك الفكرة التي صاغها جاكبسون بقوله: "إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب، وإنما الأدبية أي ما يجعل من عمل ما عملاً أدبيًّا"(٢)، كما استفادت الدراسة من معطيات السردية الدلالية، وهو التيار الذي يحلل العناصر الحكائية اعتمادًا على المضمون الفني الذي تؤديه هذه العناصر من خلال علاقاتها داخل البنية الحكائية وما يتعلق بها من وظائف الوحدات ووظائف المكونات من راوٍ وشخصيات وزمان ومكان.

وفي الوقت نفسه، عوَّلت الدراسة على المنهجين التاريخي والاجتماعي، وبخاصة أن النص القصصي لابن عربشاه نص أفرزته ظروف تاريخية واجتماعية بالغة الأهمية، ومن ثم كان لا بد من الإلمام بالسياقين الاجتماعي والتاريخي اللذين أفرزا هذا النص؛ لأن مراعاة المتغيرات الاجتماعية والتاريخية لنصوص ابن عربشاه القصصية من شأنه أن يكشف عن رؤى مختلفة، تثري النص من أهمها مدى ارتباط تحول الأشكال الأدبية وتطورها بالتحولات الاجتماعية على المستوى الاقتصادي والسياسي(٣). خصوصًا بعد أن اكتظت هذه النصوص بالإشارات الدالة على البنى السردية والتقاليد الاجتماعية والتاريخ.

(١) لمزيد من التفاصيل عن اتجاهات الدراسات السردية، د. عبد الرحيم الكردي: السرد ومناهج النقد الأدبى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٨٩ وما بعدها.

(٢) السابق: ص١٠٥.

(٣) يرى أصحاب الرؤية الاجتماعية في تحليل القصة، كما ظهرت عند دعاة البنيوية التكوينية، وفي مقدمتهم جورج لوكاتش ولوسيان جولدمان، أن النقد الأدبي يتبلور في شكل منهجية سوسيولوجية وفلسفية لإضاءة البنيات الدالة، مع تحديد مستويات إنتاج المعنى عبر أنماط من الرؤية للعالم، وارتباط تحول الأشكال الأدبية وتطورها بالتحولات الاجتماعية على المستوى الاقتصادي والسياسي. (لمزيد من التفاصيل عن هذه النظرية: لوسيان جولدمان وآخرون: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص ٥٧ وما بعدها- توفيق الزيدي: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٤م، ص ٤٤ وما بعدها).

إنَّ جعل النص كيانًا منغلقًا على ذاته أمرٌ لا يمكن الاطمئنان إليه، فالنصُّ القصصيُّ- كغيره من النصوص الأدبيَّة- منظومةٌ تكامليةٌ متجانسةٌ من الدوافع والتراكيب والعلاقات، وكأن الجزء فيها عضو في بنية لا يستقيم لها وجود ذو جدوى، إذا ما فقد أحد أركانها؛ على ذلك، فالباحث الذي يروم رؤيةً تكامليةً توفر له مصداقيةً في العمل البحثي، لا بد أن يتخذ توجهاتها من روحٍ موضوعيٍّ رصينٍ؛ "فلا شرعية لأي نظريةٍ جماليةٍ في الأدب ما لم تتخذ من مضمون الرسالة الأدبية أُسًّا لها، بل أهم قواعدها التأسيسية، كما أنه لا يمكن الإقرار بأية قيمةٍ جماليةٍ للأثر الأدبي ما لم نشرح مادته اللغوية على أساس اتحاد منطوق مدلولاتها بملفوظ دوالها"[(١)].

لقد اقتضت طبيعةُ هذه الدراسة، وطبيعةُ منهجها الذي اختاره صاحبها، أن تقسم إلى **مقدمةٍ** حُدد فيها موضوعُ الدراسة، وأسبابُ اختياره، ومنهجها، والخطة التي كتبت عليها، وتلا هذه المقدمة تمهيدٌ **وأربعةُ فصولٍ** يؤسس **التمهيدُ**، وعنوانه "**ابن عربشاه وفن القص**"، للدراسة، فيتناول العصر الذي عاش فيه ابن عربشاه، ثم يترجم له ويتتبع مراحل حياته، مطلاًّ بعد ذلك على القص العربي وأشكاله قبل ابن عربشاه، ليصل أخيرًا، وهو المبتغى، إلى أشكال القص لدى ابن عربشاه. محاولاً خلال ذلك التعرف على الظروف التي عاش فيها ابن عربشاه، وكيف كوَّن ثقافته، محددًا الكتب القصصية التي ستكون مناط الدراسة، وموقعها من أشكال القصص العربي.

يعتني **الفصلُ الأوَّلُ** بدراسة "**وحدات البناء القصصي**"، فيتناول بالدرس والتحليل الوحدات القصصية الأربع: العنوان، والحكاية الإطارية، والحكاية الفرعية، والحكاية المتداخلة، التي كونت هيكل الحكي وخطته التنظيمية في النتاج القصصي لابن عربشاه، ساعيًا إلى رصد المتشابه والمختلف في هذه الوحدات بين الكتب الثلاثة، متوخيًا الوقوف على وظائف هذه الوحدات في الكتب الثلاثة أيضًا.

ويختص **الفصلُ الثاني** بدراسة "**الرَّاوي ووظائفه**"، سواء كان راويًا خارجيًّا، أو داخليًّا أو مجهولاً، معالجًا كل شكل من أشكال هؤلاء الرواة ووظائفه على حدة، بالإضافة إلى وقوف

(١) د. عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م، ص ١١٨.

الفصل أمام تدخلات الـكاتب في حكيه، راصدًا أشكالها ومواضعها وانعكاساتها على البنيـة القصصية، وما أدته داخل القص من وظائف.

ويقوم **الفصلُ الثالثُ**، وقد جاء تحت عنوان "**الشخصية.. نماذجها ودلائلهـا**"، علـى دراسة أربعة نماذج من الشخصيات التي عاشت داخل العالم القصصي لابن عربشاه، وهـي على التوالي: شخصية الحاكم، وشخصية الحيوان والطير، وشخصـية المـرأة، والشخصـية العجائبية، بوصف هذه النماذج كاشفة عن رؤية المؤلف للعالم من حوله، محاولاً في دراسـته لكل شخصية تبين كيف بناها المؤلف داخل قصصه وحكاياته وأخباره، ودلائل الشخصية وما يرمي إليه الكاتب من توظيفه لها في حكاياته.

ويهتم **الفصلُ الرابعُ** بدراسة "**الفضاء القصصي**" بعنصريه الزمان والمكان، فيتوقـف أمام مستويات الزمان: الترتيب، والمدة، والتواتر. كما يدرس المكان بوصفه باعثًا على انفتاح الحكي تارة، أو رمزًا تارة أخرى، أو بوصفه فضاءً طاردًا حينًا وجاذبًا حينًا آخر، هادفًا إلـى رصد الكيفية التي تعامل بها ابن عربشاه مع عنصرين من عناصر البنية القصصية، وكيـف استطاع استغلالهما في استكمال بناء نصوصه القصصية.

وأخيرًا، تأتي **الخاتمةُ** لرصد أهم النتائج التي توصلت إليهـا الدراسـة، يليهـا **ثبـت بالمصادر والمراجع** التي قامت الدراسة عليها.

إن هذه الدراسة في مسعاها وهدفها، من خلال الدراسة التحليلية للكتـب القصصـية الثلاثة لابن عربشاه، تحمل دعوةً إلى إعادة النظر والقراءة للتراث القصصي العربي، بشـكل عام، ولنتاج أدباء العصر المملوكي على نحو خاص، وأولى خطوات هذه القراءة وإجراءاتها، وليس آخرها بطبيعة الحال، عدم تصنيف نتاج هؤلاء الأدباء طبقًا لعناوينه، فقد يكون العنوان موحيًا بأن كتابًا من الكتب خالٍ من الإبداع والخيال، وحين تدخل إليه تجد فيه فنًا متقنًا مكتمل البناء والأركان والمكونات.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان، وعميق الامتنان، إلـى أستاذي العالم الفاضل **الأستاذ الدكتور شعبان محمد مرسي**، رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم، الذي أشرف على هذا البحث وتابعه بالرعاية والتوجيه مذ كان نبتة صغيرة تحتاج من يرعاها ويقوم عليها، فلولا فضل الله، ثم رعاية أستاذي، لما استوت علـى هـذا النحـو

الراهن، فله أدين بالفضل العظيم، وأدعو الله أن يحفظه، ويبارك فيه، وينفع به وبعلمه البحث والباحثين.

كما يسعدني أن أسجل هنا خالص ودي وتقديري وشكري وعرفاني لأستاذيّ العالمين الفاضلين الجليلين: العالم الفاضل **الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي** أستاذ الأدب العربي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، والعالم الجليل **الأستاذ الدكتور عبد المعطي صالح** أستاذ الأدب العربي بقسم اللغة العربية بكلية الألسن جامعة عين شمس، على تفضلهما مشكورين بقبول مناقشة هذا البحث وتقويمه وإبداء الملاحظات العلمية السديدة، والآراء القيمة الرشيدة التي ستثري البحث بمشيئة الله.

وبعد، فهذه هي الدراسة أقدمها راجيًا أن تكون قد حققت الغاية التي توخت، فإن كان ذلك، فبفضل من الله، وله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى، فعزائي أني قد بذلت الجهد خالصًا، واجتهدت صادقًا، وحسبي جزاء من أخلص الجهد وصدق الاجتهاد.

والله المستعان، وهو الهادي إلى سواء السبيل

فهرست الدراسة

التمهيد

ابن عربشاه وفن القص

عصر المؤلف

أكثر السلطان المنصور قلاوون (ت ٦٨٩هـ) من جلب المماليك الجراكسة، فقد أراد أن يكون طائفةً جديدةً من المماليك تختصه بولائها، وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين، وأسكنهم بجواره في أبراج القلعة، ومن ثم لصقت بهم في التاريخ تسمية "المماليك البرجية"، وقد حرص على الفصل بينهم وبين غيرهم من طوائف المماليك الأتراك، وأشرف بنفسه على تدريبهم، كما حباهم بعطفه وأغدق عليهم المال، فضلاً عن أنه– هو وأبناؤه من بعده– اختصهم بالترقية إلى بعض الوظائف الكبرى في البلاط المملوكي.

ما لبث أن زاد نفوذ المماليك البرجية في عصر أبناء المنصور وأحفاده حتى تمكنوا من السطو على منصب السلطنة؛ ليبدأ بذلك عهد جديد من عصر السلطنة المملوكية في مصر والشام، هو عصر المماليك الجراكسة أو عصر المماليك البرجية (٧٨٤-٩٢٣هـ) بولاية السلطان برقوق (ت ٨٠١هـ) الذي تزعم المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان سنة ٧٨٤هـ[1].

وعصر المماليك البرجية هو العصر الذي عاش فيه ابن عربشاه، ولم يكن بأفضل من العصور السابقة عليه من حيث كثرة الاضطرابات السياسية؛ في الداخل والخارج.

ففي الخارج واجه المماليك البرجية عددا من المخاطر، أولها كان الخطر الصليبي، إذ لم يرتدع الصليبيون بالهزيمة التي أنزلها بهم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (ت ٦٩٣هـ) حين فتح عكا سنة ٦٩٠هـ[2]، فأعادوا الكرة قبيل قيام دولة المماليك البرجية، حيث أغاروا على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ ودمروها، ووصف لنا ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) هذه الموقعة بقوله: «وذلك أنّهم (الفرنج) وصلوا إليها (الإسكندرية)... فلم يجدوا بها نائبا ولا جيشًا ولا حافظًا للبحر ولا ناصرا، فدخلوها يوم الجمعة بكُرة النهار بعدما حرقوا أبوابا كثيرة منها، وعاثوا في أهلها فسادا، يقتّلون الرجال، ويأخذون الأموال، ويأسرون النساء والأطفال»[3]،

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن ذلك: البدر العيني: السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة، تحقيق: إيمان عمر شكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، سلسلة: صفحات من تاريخ مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص ٤٥ وما بعدها.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، الناشر دار الغد العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ٧: ١٣/ ٣٢٦. – ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ٨/ ٤-٨.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية ٧: ١٤/ ٧٥٩.

وساعتها أعلن السلطان الأشرف شعبان التعبئة العامة، ولما وصلت جيـوش المماليـك إلـى الإسكندرية وجدوا الفرنجة قد رحلوا عنها بعد أن دمروها تماما ونهبوا كل ما فيها، ورحلـوا بالأسرى والغنائم إلى جزيرة قبرص[١].

لم تغب الأطماع في مصر وبلاد الشام عن أذهان الصـليبيين لحظـة طـوال عهـد المماليك البرجية، بل ظل الصليبيون، لاسيما القبارصة، يهددون الموانئ الإسلامية، ففي عهد السلطان برسباي (ت ٨٤١هـ)، وفي شهر شعبان سنة ٨٢٥هـ، كثرت غارات الفرنجة على السواحل المصرية، وهجمت سفينتان صليبيتان على ميناء الإسكندرية؛ فوجدوا فيها- أي جنود السفينتين- مركبا للتجار فيه بضائع بنحو مائة ألف دينار؛ فحاولوا الاسـتيلاء عليـه، ودارت معركة بينهم وبين التجار يعاونهم أهل الإسكندرية، وأحرق الصليبيون المركب التجارية، ولم تصل سهام المصريين إلى مراكب الفرنجة؛ لأنه لم تكن لأهل الإسكندرية مراكـب بحريـة، وانتهت المعركة بانتصار الصليبيين، ومضوا نحو برقة، فأخذوا ما قدروا عليه منها، ثم عادوا إلى الإسكندرية، وبعدها اتجهوا نحو الشام[٢].

وفي رمضان من سنة ٨٢٦هـ، جاءت الأخبار من قبرص باستعدادات الفرنجة للقيام بغارات أخرى على السواحل، فأصدر السلطان برسباي أوامره للأمراء فاستعدوا وتحصـنوا في الإسكندرية ودمياط ورشيد، واكتمل الاستعداد، ولما علم القبارصـة بـذلك لـم يرسـلوا حملتهم[٣].

وفي شهر رجب سنة ٨٢٧هـ، تمكن القراصنة القبارصة من اقتناص مـركبين فـي دمياط، وكان عليهما أكثر من مائة رجل وبضائع كثيرة، واشتد غـيظ السـلطان برسـباي؛ فصادر أموال التجار الفرنجة في مصر والشام[٤].

كل هذه الحملات من القبارصة دفعت السلطان برسباي إلى التفكير في فـتح قبـرص ليأمن تلك الغارات، وقد جهز لها ثلاث حملات عسكرية، كانت الأولى فـي رمضـان سـنة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٧: ١٤/ ٧٥٩. – ابـن تغـري بـردي: النجـوم الزاهـرة ١١/ ٢٤-٢٥. – السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: د. بشار عواد معروف، وعصام فارس، ود. أحمد الخطيبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ١/ ١٤٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤/ ٨٤.

(٣) السابق: ١٤/ ٩١.

(٤) السابق: ١٤/١٠٣.

٨٢٧هـ، والثانية في شهر المحرم سنة ٨٢٨هـ، والثالثة في رجب سنة ٨٢٩هـ، فقضت الحملات الثلاث على ذلك الخطر، واستطاعت الحملة الثالثة أسر ملك قبرص جينوس بن جاك، وجاءوا به إلى القاهرة؛ فقبل جينوس الأرض بين يدي برسباي، واستعطفه في أن يطلق سراحه، فوافق السلطان على أن يدفع جينوس مائتي ألف دينار فدية، مع التعهد بأن تظل قبرص تابعة لسلطان المماليك، وأن يكون جينوس نائبا عنهم في حكمها، وأن يدفع جزية سنوية[١]، واستمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تابعة لمصر، حتى سنة ٩٢٣هـ ـ التي سقطت فيها دولة المماليك على يد السلطان العثماني "سليم الأول".

غير أن الخطر الصليبي تجدد مرة أخرى على مصر والشام من جزيرة رودس التي كانت تعتدي على التجار، فجهز السلطان جقْمق (ت ٨٥٧هـ) عدة حملات لغزوها وفتْحها بين عامي ٨٤٤هـ و٨٤٨هـ، إلا أن هذه الحملات فشلت في إتمام مهمتها، وذلك بسبب الدعم الصليبي لهذه الجزيرة بعد استنجاد أمرائها بالبابا وملوك أوروبا[٢].

على الجانب الآخر، أعني: الحدود الشرقية لدولة المماليك البرجية، كان العالم الإسلامي على موعد مع هجمات تترية جديدة، لا تقل شراسة ولا تدميرا عن الهجمات التترية التي دمرت أغلب حواضر العالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري وقادها "جنكيزخان"، فقد قاد القائد التتري تيمورلنْك بن تُرغَاي بن أَبغَاي (ت ٨٠٧هـ) الذي يمتد نسبه إلى جنكيز خان من جهة النساء[٣]، حملة تدمير لمدن العالم الإسلامي، ففي الفترة الأولى من حكم السلطان فرج بن برقوق (٨٠١- ٨٠٨هـ) عاد تيمورلنك من الهند متجها نحو العراق وبلاد الشام، ففر من بغداد أحمد بن أويس (ت ٨١٣هـ) حاكمها، واحتمى بحلب، في حين واصل تيمورلنك غزواته ومسيره نحو بلاد الشام، فاستولى في طريقه على "سيواس" و"مرغش" و"عنتاب"، وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام[٤].

---

[١] تفاصيل الحملات الثلاث: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤/ ١٠٥- ١١٥ –والمنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: د. محمد محمد أمين، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ٣/ ٢٦٢- ٢٦٩.

[٢] تفاصيل الحملات الثلاث: تقي الدين المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه وضبط حواشيه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٤م ٤/ ١٢٠٥ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٥/ ١٠٣- ١٠٤ و١١١.

[٣] ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بسوريا، ١٩٨٦م، ص ٤٥.

[٤] تفاصيل الخبر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٤/ ١١٧.

لم يستجب المماليك للإنذار الذي وجهه تيمورلنك بضرورة تسليم حلب، فتجمعت الجيوش من نيابات الشام استعدادا للمقاومة، ولكن تيمور أنزل الهزيمة بقوات المماليك، واقتحمت جيوشه حلب سنة ٨٠٣هـ لتعمل فيها قتلاً وسلبا ونهبا، فاهتزت مصر لأنباء تلك الهزيمة، وخرج السلطان فرج بن برقوق– الطفل– على رأس جيش ومعه الخليفة والقضاة، ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة مرة أخرى بالمماليك، بسبب هروب أمرائهم من المعركة، وقد وصف ابن عربشاه هذا الهروب، فقال: «وكان الناس في الليل والنهار، ملازمين الإقامة على الأسوار، وكل قد فرح وابتهج، وتيقن أنه قد حصل له من سلطانه فرج، ففي بعض الليالي صعد الناس إلى مكان عالٍ، وإذا بأماكن مخيم السلطان، قد ملئت من النيران، ولم يعرف أحد ما الخبر، غير أن الدنيا ملئت بالشر والشرر، وأصبحوا وقد خلت الديار، ولم يبق في قبة يلبغا نافخ نار، فخشعت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، فجعلوا يتهاتفون، وفيما بينهم يتخافتون، وماج الشر واضطرب، وقال الناس: السلطان هرب؛ فانقصم ظهر الناس، وأيقنوا حلول البأس، وتفاقمت الهموم، وتعاظمت الغموم، وتقطعت بهم الأسباب، وشمل الخلائق أنواع العذاب، وضاقت الحيل كالصدور، وتخبطت الأوامر والأمور»[1].

بعد ذلك عاد فرج بن برقوق إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد تيمورلنك، في حين تمكن الأخير عن طريق الحيلة من دخول دمشق سنة ٨٠٣هـ، حيث أقام بها قرابة ثلاثة أشهر جمع فيها كثيرا من أموالها، فضلاً عن أولي الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات الذين بعث بهم إلى سمرقند[2]، ثم تم الصلح بين تيمورلنك والسلطان فرج سنة ٨٠٤هـ، وبعد ذلك خرج تيمورلنك من الشام لينزل الهزيمة بالسلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقرة سنة ٨٠٥هـ[3].

---

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ٢٤٧.

(٢) السابق: ص ٢٩٥. **وسمرقند:** مدينة تقع بين نهري سيحون وجيجون، على الضفة الجنوبية لنهر السغد، وتشرف من جهة الشرق على الصين، ومن الغرب على بخارى، ومن الشمال على نهر السغد، ومن الجنوب على مدينة كش، كان يقال لها بالعربية: سمران، ولما عربت قيل: سمرقند، وصفت بأنها من أعظم مدن ما وراء النهر. (أبو الفدا: تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٨٥٠م، ص ٤٨٢. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٩م، ج٤، ص٤٣٦، ٤٣٧. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، ج ٣، ص ٢٤٦. د. أحمد محمود السادلتي، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٣٥).

(٣) ابن عربشاه: عجائب المقدور، ص ٣٢٦ وما بعدها. - ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٤/ ١٢٦.